ذو الرمة بين الانكسار و ترميم الذات
"مقاربة نفسية اجتماعية"

د/لمياء عبد الحميد القاضي
مدرس الأدب العربي القديم-قسم اللغة العربية
كلية الآداب- جامعة بني سويف

المقدمة

اضطربت الساحة السياسية وظهرت الأحزاب المختلفة واشتعلت بينها وبين الدولة الأموية نيران الحرب بالسلاح وبالكلمة، وراح كل حزب يجمع حوله الأنصار. وعلى الرغم من ظهور الغلبة للحزب الأموي وسيطرته غالبا ، إلا أن الخلفاء والأمراء والولا ة كانوا دائما يحاولون جذب الشعراء لمدحهم وإظهار أحقيتهم في الولاية، من هنا تنافس الشعراء – طلبا للجوائز- في مدح بني أمية وولاتهم وهجاء كل من عاداهم. ولمعت أسماء بعض الشعراء وقرّبهم الخلفاء إليهم وأجزلوا صلاتهم. ولا يخفى دور بني أمية في محاولات إلهاء الناس عن الاشتغال بالسياسة ، وكان دورهم المعروف في الحجاز عن طريق الإغداق بالمال لشغل الناس في الترف والرفاهية؛ فارتبطت بيئة الحجاز بشعر الغزل، بينما أزكت نار العصبية القبلية في العراق فانتعش شعر الهجاء وازدهرت النقائض في بيئة العراق.

في هذه الظروف نشأ ذو الرمة [1] في هذه البيئة الشعرية التنافسية، التي لا نكون متجاوزين إذا وصفناها بأنها بيئة إقصائية لكل من يخرج على السياسة والفكر الأ موي، فالأحزاب المعارضة محاربة منبوذة، لا يتورع فيها الساسة عن وصم من خ الفهم بالخارج على الدين لأنه خرج على ولي الأمر، بصرف النظر عن الكيفية التي وصل بها الأمويون إلى سدة الحكم، كذلك لم يلمع من الشعراء ولم يُقرب إلا من سار وفقًا للمنهج السياسي المرسوم لكل إقليم من الأقاليم ، فهناك من بزغ نجمه لا شتغاله بالغزل، من أمثال عمر بن أبي ربيعة في الغزل اللاهي في حواضر الحجاز، وجميل بن معمر بغزله العفيف في بوادي الحجاز، وغيرهماالكثير من شعراء الغزل ال لاهي أو العفيف ، أو من اشتغل بالهجاء القبلي وما صحبه من النقائض، من أمثال ا لأخطل والفرزدق و جرير، أما من ابتعد عن ذلك المسار فلا نجد له نفس الحفاوة الإ علامية التي حظي بها غيره ممن سار وفقا للخطة المرسومة. من هنا كانت نقطة ا لانطلاق نحو موضوع هذا البحث ، حيث يهدف إلى التعرف على أثر المجتمع الذي أراد ذو الرمة الانضمام إليه، والاقتراب منه لعرض موهبته الشعرية؛ وكيف أثر ذلك في إبداعه الشعري، فكان التناول المختلف لشعر ذي الرمة، تناولا أراد تخطي فكرة ما سبق من الدراسات التي ركزت على تفرد ذي الرمة وتميزه في رسم لوحات شديدة التفصيل عن الحياة في الصحراء،أو الحديث عن غزله بمحبوبته مية، مُحاولةً أن ترى بعدا جديدا مغايرا،استطاع من خلاله ذو الرمة أن يبقي على تميزه

[1] -غيلان بن عقبة بن بهيس مضري النسب ، ،وُلد عام 77هـ بصحراء الدهناء بالقرب من بادية اليمامة، لأم من بني أسد تسمى ظبية اشتهر بغزله بمحبوبته مية ، وبدقة وصفه للصحراء ومعالمها مقتديا في فنه بشعراء العصر الجاهلي،ومات عام 117هـ.

تعديل من خلال WPS Office

عن الآخرين مع تحميل ذلك إنتاجه الفني الرائع برموز صنعها لتخطي أزمته مع مجتمع لم يستوعب اختلاف الآخر ، فكانت تلك المقاربة النفسية الاجتماعية مدخ لا إلى دراسة إبداع ذي الرمة، لإبراز مشكلته مع ذلك المجتمع والتي عالجها بإحساس فني عال متجاوزا أزمة ذاته في مواجهة المجتمع.

قراءة فيما بين السطور

من الإنصاف أن تقوم الدراسة على الإلمام بظروف الشاعر وما أحاط به مما أسهم في تشكل النص. لذا فإن منطلق هذه الدراسة سيهتم بقراءة النص دون إهمال الجوانب الخارجية له، التي تعتبر علامات استرشادية أو مفاتيح تساعد على فتح آفاق جديدة في النص، حيث تسعى إلى إنتاج قراءة أكثر اتساعا.

وقراءة إبداع ذي الرمة يحتاج شيئا من الروية؛ فالقراءة السطحية لن توصلنا إلى جديد، فنحن بحاجة إلى قراءة تحتاج إلماما بحياته من جهة، كما تقتضي منا كذلك إلى أن نلتقي بنصوصه مرات " ثانية أو ثالثة أو عاشرة، نبدأ في أن نرى ما " يقوله" ، وهذا يتيح لنا أن نصبح أكثر تعاطفا وأدق حسا في نظرتنا إلى العمل، فعندئذ ندرك ما هو الاستعداد الذهني اللازم لتذوق العمل وكيف ينبغي أن نعد أنفسنا للا ستجابة له، وفي الوقت ذاته نعمل على كبت تلك الاستجابات الغريبة عن روح العمل ودلالته، ونستطيع أن ندرك كيف تسهم مختلف عناصر العمل في التأثير الكامل."[2]

فعندما نتأمل حياة ذي الرمة كما قدمتها كتب الأدب نجد فيها ما يلفت الانتباه إلى تلك الشخصية الأدبية؛ إذ نجد أن الكتب قدمت هذا الشاعر للمتلقين بشكل يجعلنا نقف أمام هذه القامة في حالة من الحيرة، ويبدو ذلك منذ الحديث أولا عن سبب كنيته: فلقد ذكر في تلك التسمية عدة أسباب، لكننا نقف مع سبب سيظهر مدى اتساقه مع مجموعة من النصوص المتضامة التي قصد بها أصحابها تقديمه ورسمه في الأذهان بصورة خاصة؛ فلقد قيل إن أحد أسباب تسميته بذي الرمة يرجع إلى أن" أم ذي الرمة جاءت إلى الحصين بن عبدة ابن نعيم العدوي وهو يقرىء الأعراب بالبادية احتسابا بما يقيم لهم صلاتهم، فقالت له يا أبا الخليل إن ابني هذا يروع با لليل فاكتب لي معاذة أعلقها على عنقه، فقال لها: ائتيني برق أكتب فيه، قالت: فإن لم يكن فهل يستقيم في غير رق أن يكتب له، قال: فجيئيني بجلد، فأتته بقطعة جلد غليظ، فكتب له معاذة فيه، فعلقته في عنقه، فمكث دهرا، ثم إنها مرت مع ابنها لبعض حوائجها بالحصين وهو جالس في ملأ ٍ من أصحابه ومواليه، فدنت منه فسلمت عليه وقالت: يا أبا الخليل ألا تسمع قول غيلان وشعره، قال بلى، فتقدم فأنشده وكانت المعاذة مشدودة على يساره في حبل أسود، فقال الحصين: أحسن ذو الرمة[3] فغلبت عليه"[4].

---

[2] - النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، جيروم ستولنيتز ، ت فؤاد زكريا، مطبعة جامعة عين شمس، 1974 ص108

[3] - الرمة هي القطعة البالية من الحبل.

4- الأغاني ،أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق : سمير جابر، الناشر : دار الفكر – بيروت الطبعة الثانية،ج18، ص 6

تعديل من خلال WPS Office

ويبدو من الخبر أن هذا الفزع لازمه مدة ليست بالقصيرة .وهنا نتساءل هل عمد الخبر إلى أن يقدم لنا طفلا وصبيا مصابا بمرض نفسي أو عصبي؟!، ويأتي خبر آخر عنه ينضم إلى الخبر الأول من حيث الفحوى التي يرمي إليها،وذلك عندما نجد تضاربا فيما يذكر عن صفاته الجسدية، فهو تارة يوصف بحُسن الشكل فوجهه مدور ، وشعره حسن، أقنى وأكحل وحسن الضحك، بينما نجده تارة أخرى يوصف بأنه دميم ، شخت،أجنأ. وكأننا إزاء أخبار تحاول تشويش رؤية المتلقي حول هذا الشاعر.

بل وتزداد محاولات تقبيح صورته من خلال تأكيد تلك الصفات وإثباتها بتقريرها على لسان أقرب الناس إليه، أمه ومحبوبته، فهاهي ذي أمه تطلب من الناس الذين اجتمعوا ليسمعوا شعره، ألا ينظروا إلى وجهه، بل لينصتوا إلى شعره[5].

ويسوق لنا ابن قتيبة موقفا لمية محبوبة ذي الرمة تؤكد أيضا قبح صورته:" مكثت ميّة زمانا لا ترى ذا الرّمّة وتسمع شعره، فجعلت لله عليها أن تنحر بدنة يوم تراه، فلمّا رأته رأت رجلا دميما أسود، وكانت من أجمل النساء، فقالت: واسوأتاه! وا بؤساه! "[6]

وتزداد الدمامة الخِلقية التي وُصم بها بدمامة خُلقية؛ إذ وصف أيضا بأنه كان شخصا طفيليا، ومن اللافت أن هذا الوصف جاء بعد الحديث عن أنه كان ينزل إلى الكوفة والبصرة ، وكأن أهل هاتين المدينتين هم من لاحظوا ذلك، صحيح قد يكون مرده إلى أن ذا الرمة شاعر يتسم بالبداوة، ولكن في الخبر أيضا يمكن أن يتعاضد ويتسق مع الإقصاء الذي كان يمارس ضد من لم يستطع مواكبة التغيرات المفروضة على تلك البيئة.

ومع هذه الأنباء عن دمامته وتطفله، نجد أنباء تشيد به وبتميز أشعاره وقوة تعبيره، ولعل في تآزر بعض الأخبار الواردة في حقه ما أوغر صدور من عاصره من الشعراء؛ فراحوا يزاولون ضده سياسة التهميش وتعظيم فكرة إبعاده عن قصر الخليفة، فنسمع من الإشادة بمكانته الكثير من الأقوال" إذ لم يكن أحد من القوم في زمانه أبلغ من ذي الرمة" أو قول حماد الراوية : قدم علينا ذو الرمة الكوفة فلم أر أفصح ولا أعلم بغريب منه ، كذلك قدمه الأصمعي على كل العشاق الحضريين"7

وتبقى لحماد الراوية عبارة، هي العبارة المفتاح في قراءة حياة ذي الرمة التي انعكست على شعره:" ما أخر القوم ذكره إلا لحداثة سنه، وأنهم حسدوه. " كانت حياة ذي الرمة حياة قصيرة إذ مات وهو ابن أربعين عاما، وعلى الرغم من قصر حياته إلا أنه استطاع أن يحوز إعجاب من سمع شعره. وأما ما كان من أمر إثارة

---

[5] - المرجع السابق ص 10، "اجتمع الناس مرة وتحلقوا على ذي الرمة وهو ينشدهم فجاءت أمه فاطلعت من بينهم فإذا رجل قاعد وهو ذو الرمة. وكان دميماً شختاً أجنأ فقالت أمه: استمعوا إلى شعره ولا تنظروا إلى وجهه،" شخت: الدقيق من الأ َصل، لا من الهُزال "، أجنأ: الجَنَأ: مَيَلٌ في الظَهْر

[6] - الشعر والشعراء،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،دار الحديث، القاهرة،1423 هـ، ج1،ص 517

[7] - الأغاني،ج18 ص12-13

تعديل من خلال WPS Office

حسد معاصريه فالأمر ثابت من خلال شهادة الفرزدق وجرير له، فقد اتفقا أمام أحد الخلفاء أنه قد أتى من حسن الشعر وطريفه ما لم يسبقه به أحد من الشعراء[8].
وعلى الرغم من ذلك نجد الفرزدق يأخذ أبياتا لذي الرمة وينسبها لنفسه، فيأمر راويته أن يضم هذه الأبيات إلى شعر الفرزدق، بإدعاء أنه أولى بها منه[9]، وكأن جيد الشعر مقصور عليه ولا يُسمح لذلك البدوي أن يأتي بما يتفوق به عليه. يقول جرير: ما أحببت أن ينسب إلي من شعر ذي الرمة إلا هذه القصيدة (مابال عينيك منها الماء ينسكب)، فإن شيطانه كان فيها ناصحاً ولو خرس بعدها لكان أشعر الناس[10]
وعلى الرغم من هذا الإعجاب بشعر ذي الرمة الذي بدا في كلام جرير، إلا أنه يحمل أيضا معنى لا يخلو من شعور بغيرة شديدة، حيث أحس هو أيضا بأن هذه القصيدة كانت أنسب أن تصدر عنه، كما يحمل الكلام أيضا تمني جرير بأن يخرس ذو الرمة وليته ما قال شعرا بعد قصيدته "مابال عينيك"..
إذا فبالرغم من ورود شهادة أكبر شعراء العصر له بالتفوق، إلا أن الحسد ظاهر فيما صدر عنهما، وهنا يبدو ذلك العمق الدلالي في المقولة السابقة لحماد الراوية معللا عدم سطوع نجم ذي الرمة.
فهل خشي الشاعران الكبيران أن ينافسهما ذلك الأعرابي في المكانة، بعدما لمحا فيه تلك النجابة المبكرة والتفوق، أوأن تكون له قاعدة شعبية بين العامة فيأسر قلوبهم بشعره الذي كان يلقيه بالمربد، هنا تكثر علامات الاستفهام حول ما جاء من مواقف حدثت معه في سوق المربد تشعر المستمع بأن هناك محركا لتلك المواقف وأنها لم تأت عفوا .فمن تلك المواقف ما يذكره الأصفهاني:
"بينا ذو الرمة ينشد بالمربد والناس مجتمعون إليه إذا هو بخياط يطالعه ويقول يا غيلان

أأنتَ الذي تستنطق الدارَ واقفاً ... مِنَ الجهل هل كانت بكنّ حلولُ ...

فقام ذو الرمة وفكر زمانا ثم عاد فقعد في المربد ينشد فإذا الخياط قد وقف عليه ثم قال

أأنت الذي شبّهت عَنْزاً بقفرةٍ ... لها ذَنَبٌ فوق استِها أمّ سالم
وَقَرْنانِ إمّا يَلزقا بِكَ يَتْركا ... بجَنْبَيْك يَا غيلا َنُ مِثلَ المواسم
جعلت لها قرنين فوق شواتها ... وَرَابَك منها مَشْقَةٌ في القوَائِمِ

فقام ذو الرمة فذهب ولم ينشد بعدها في المربد حتى مات الخياط. قال وأراد الخياط بقوله هذا قول ذي الرمة

أقول لدَهْنَاوِيّةٍ عَوْهَجٍ جَرَتْ ... لنا بين أعْلَى بُرقةٍ في الصّرائم
أيا ظبية الوَعْسَاء بين جُلا َجلٍ ... وبين النقا أأنْتِ أم أمُّ سالم
هي الشِّبْهُ لولا مِدْرياها وأذْنها ... سواء وإلا مَشْقَةٌ في القوَائم

فانتبه ذو الرمة لذلك فقال :

أقولُ بذِي الأ َرْطَى عشِيّةَ أرشَقَتْ إلى الرّكْبِ أعناقُ الظِّبَاء

[8] -الأغاني،ص14
[9] - راجع الخبر في الأغاني ج18،ص21
[10] -خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1،ص272، النسخة الإلكترونية موقع الوراق.

تعديل من خلال WPS Office

الخَواذلِ
لأدماءَ مِنْ آرام بـيـن سُوَيـــ ـْقـــةٍ وبين الجبال العُفْر ذاتِ السّلا سِلِ
أرى فيكِ من خرقاءَ يا ظبيةَ اللِوَى ... مشابهَ جُنِّبْتِ اعتلاقَ الحبائِلِ ..
فعيناكِ عيناها وجِيدُك جِيدُها ... ولونك لولا أنها غيرُ عاطل .. "[11]

تظهر شخصية الخياط وكأنها شخصية مدسوسة على ذلك البدوي الحالم الذي يقف وحيدا يعزف بمهارة لحنا متميزا قد لا يوافق السياسة العامة، فيحاول ذلك الرجل التقليل من شأنه والسخرية مما يقول بهدف إبعاده وطرده إلى الظل، إلى حيث كان ، فلقد كان سوق المربد سوقا أدبيا، كما وُظف أيضا توظيفا سياسيا لإلهاء الناس بـالعراق من خلال شعر النقائض الذي كان يزكي نار العصبية القبلية ، فينشغل الناس ويجتمعون حول تلك النيران يباركونها، وعلى الرغم من أن ذا الرمة شاعر مشهود بقوته وتمكنه الشعري، إلا أنه لم يصمد أمام ذلك الخياط الذي لم يعرفه أحد، و الذي بدا متعسفا مدعيا بل ربما مأجورا، لكنه نجح في إبعاده فترة عن المربد حتى مات الخياط؛ ليعود ذو الرمة ولكن بعدما ابتعد مدة عن الالتقاء العام بالناس.

وفي سوق الكناسة نجد محاولة أخرى للنيل منه:

"حكي أن إسحاق بن سويد المعارض له قال وأخبرني الأخفش قال حدثني محمد بن يزيد النحوي قال حدثني عبد الصمد بن المعذل قال حدثني أبي عن أبيه قال: قدم ذو الرمة الكوفة فوقف ينشد الناس بالكناسة قصيدته الحائية حتى أتى على قوله

إذا غَيّر النّأيُ المُحِبّين لم يَكدْ ... رَسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبّ مَيّةَ يَبْرَحُ

فناداه ابن شبرمة يا غيلان أراه قد برح؛ فشنق ناقته وجعل يتأخر بها ويفكر ثم عاد فأنشد قوله

إذا غَيّر النّأيُ المحبين لم أجِدُ ...

قال فلما انصرفت حدثت أبي فقال أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ما أنشد، وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة، إنما هذا مثل قول الله عز وجل (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها) وإنما معناه لم يرها ولم يكد........"[12]

إنه هدم لقيمته الأدبية؛ فقد خطأه الشخص الأول من ناحية المعنى، وخطأه الثاني من ناحية المبنى، إنها محاولات واضحة لإحباطه وإزاحته من الساحة، فعندما يسمع العامة أن ذا الرمة شاعر غير موفق في اختيار ألفاظه بما يتلاءم مع معانيه، وأنه يخطئ في تراكيبه، ويتردد ذلك على الألسنة ويتناقله الناس فيما بينهم، فإن الرجل سيسقط حتما، أو تنحط مكانته على أقل تقدير .

اللافت في الموقفين هو رد فعل ذي الرمة، إذ لم يكن قويا صامدا في الرد عليهما؛ بل نجده يتراجع أمام المهاجمين بسهولة، ويستدعي هذا المقام عبارة الفرزدق التي

[11]- الأغاني ص27-29، شواتها، الشوى جلد الرأس، مدراياها : المِدْرى : القرن، عوهج:الظبية حسنة اللون طويلة العنق

[12] - الأغاني 39

تعديل من خلال WPS Office

برر بها لذي الرمة لماذا لا يعد من الفحول، لتقف جنبا إلى جنب متساندة مع هذين الموقفين، كي تعمق في نفس ذي الرمة أنه لا يطاول شعراء الحضر، وكأنه خلق ليبقى في صحرائه يتأمل ملامحها ويرصد مظاهرها ويرافق حيوانها. لعل كونه غريبا عن خدع أهل الحواضر ومكائدهم هو ما جعله في ذلك الموقف الضعيف. وكل تلك المواقف والآراء إنما هي انكسارات تؤثر بلا ريب في النفس الشاعرة، فتشعره بذلك التمييز في المجتمع الحضري وتلجئه إلى بيئته الهادئة الآمنة، التي لا يعاني فيها من مرارة التفرقة، وغصة التهميش بل الإقصاء.

ولعل مما يضاف إلى تلك المشاعر ويعمقها،ذاك الموقف الذي لم يحالفه فيه الحظ بين يدي الخليفة، ففي مطلع قصيدته التي أنشدها أمام عبد الملك بن مروان، فقد سمع عنه عبد الملك من جرير والفرزدق عن ذلك البدوي المُجيد فأحب أن يراه:

" فوجّه إليه فجىء به، فقال: أنشدنى أجود شعرك فأنشده

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه من كلى مفريّة سرب

قال: وكانت عينا عبد الملك تسيلان ماء، قال: فغضب عليه ونحّاه. فقيل له:ويحك! إنما دهاك عنده قولك: ما بال عينك منها الماء ينسكب

فاقلب كلامك. قال: فصبر حتى دخل الثانية، فقال له: أنشد، فأنشد:

ما بال عينى منها الماء ينسكب

حتى أتى على آخرها، فأجازه وأكرمه. "[13]

لم يكن خلف ذي الرمة رصيد فني معروف لدى الخليفة يدعمه ليواصل اتصاله بـ الخليفة، ولا قاعدة شعبية بين الناس كتلك التي كانت لجرير الذي تعرض لموقف مشابه مع الخليفة[14]، وكأنه شعر- على الرغم من كون الخليفة قد أجزل صلته- بهشاشة العلاقة، وأنه لا يستطيع أن يصمد في هذا المحيط الشائك .

ثم كان ما بدا من موقف المجتمع عوامل مساعدة بقوة في انزوائه ووجوده على هامش الحياة الأدبية الصاخبة. حتى مع واحد من أشهر ممدوحيه وهو بلال بن أبي بردة نلمح سخرية في رده عليه عندما أنشده ذو الرمة :

رأيتُ الناس ينتجعون غَيثاً ... فقلتُ لِصَيْدحَ انتَجِعِي بِلا َلا َ

---

[13] - الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، المرزباني"أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى" ص305، موقع المكتبة الشاملة

[14] - استأذنت قيس عبد الملك في أن ينشد جرير فأبى، ولم يزل مقيماً دهراً يلتمس إنشاد عبد الملك، وقيس تشفع له، وعبد الملك يأبى إلى أن أذن له يوماً فأنشد:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح ... عشية هم صحبك بالرواح

فقال له عبد الملك: بل فؤادك يا بن اللخناء. فلما انتهى إلى قوله:

تعزت أم حزرة ثم قالت ... رأيت الموردين ذوي لقاح

تعلل وهي ساغبة بني-ها ... بأن-فاس من الش-بم القراح

فقال عبد الملك: لا أروى الله غلمتها. فلما انتهى إلى قوله:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

قال عبد الملك: من مدحنا فليمدحنا هكذا. فلما ختمها أمره بإعادتها، فلما أنشد:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح ... .

لم يقل له ما قال في المرة الأولى. فلما ختمها، أمر له بمئة ناقة بأداتها ورعاتها" مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور،ج2،ص270www.alwarraq.com

تعديل من خلال WPS Office

فلما أنشده قال له: أو لم ينتجعني غير صيدح؟ يا غلام أعطه حبلا.[15]

من المؤكد أن كل تلك المواقف والعبارات كانت ذات أثر قوي في نفسية الشاعر مفرطة الحساسية، والتي من شأنها أنها أقامت بينه وبين ذلك المجتمع وتلك الحياة حاجزا نفسيا، لكن ذا الرمة لم ينهر ولم يستسلم فلقد كان صاحب نفس تأبى الهوان،ولا تحتمل اللمز، لكنها لا تستطيع أن تصمد أمام تيارات الحواضر الجارفة، وبدلا من أن تغرقه تلك التيارات وتضيّع شخصيته، أبرزت له تميزه، فقد أدرك عدم رغبته في مسايرتها، و رفض أن تسيّره تلك التيارات حيث تشاء، بل على العكس من ذلك، فقد أدرك أن قوته في خصوصيته وتفرده بما هو عليه وإن كان لا يتماشى مع بيئة الحواضر، واتخذ قرارا بعدم المضي في محاولاته لمسايرتها، بل باللجوء إلى ميدانه الذي تميز فيه.

من هنا وجد ذو الرمة طريقه نحو ترميم تلك الذات، التي حاولت معاول الحواضر هدمها.وأوجد لذاته معادلة يبقى بها متسقا مع ذاته، متجاوزا أزمة الذات متغلبا على المعوقات. مثل ذو الرمة حياة البدوي البسيط في صحرائه معبرا عن مشكلته مع أهل الحواضر الذين نالوا القسط الأكبر من رعاية الدولة لهم. فلم يكن شعره يعبر عن خصومة حزبية، وإنما (خصومته-الهادئة المنكسرة- مع المجتمع كله ، مع تلك الحياة "التي أسقطته من حساباتها"، في الصحراء حيث الناقة والفرس" ومظاهرالصحراء" بوصفها رموزا أو معادلات كلية شاملة يتعايش معا على المستوى الحياتي ، ويثقلها برموزه على المستوى الفن)"[16]

نحو ترميم الذات:

"قيل لذي الرمة إنما أنت راوية الراعي" النميري" فقال: أما والله لئن قيل ذاك، ما مثلي ومثله إلا شاب صحب شيخا فسلك به طرقا ثم فارقه فسلك الشاب بعده شعابا وأودية لم يسلكها الشيخ قط"[17]

عبارة قيلت له في محاولة للتقليل من شأنه، ولتقويض مكانته الشعرية، كما كانت العبارات والمواقف التي مر بها في سوقي المربد والكناسة ، لكنه هنا أمام تلك العبارة الفاصلة بنى حائط صد، إذ استشعر الخطر الكامن وراء العبارة؛ حيث بدت إرادة القائل في طمس هويته الشعرية تماما، وليته كان قد صنع لنفسه هالة من الهيبة فلا يستطيع أحد أن يقتحمه بتلك السهولة، وكأن تلك العبارة نبهت نفسه

---

[15] - الأغاني،ج18- ص35 ، ويذكر المرزباني تعليقا على هذا الموقف: أن أحد الحاضرين نبهه أنه على صواب وأن طريقته تلك مستخدمة مسموعة وكأنه بهذا يوجهه إلى ما يجب عليه من رد فعل إزاء ذلك ، فكان رد ذي الرمة فيه من حسن النية وسلامتها ما يزيد من تراكمات المواقف الساخرة فتتفاقم معها أزمة الذات رويدا رويدا، والخبر كما جاء في الموشح :" فلما خرج قال له أبو عمرو- وكان حاضرا: هلا قلت له: إنما عنيت بانتجاع الناقة صاحبها، كما قال الله عز وجل «واسأل القرية التى كنّا فيها» ؛ يريد أهلها، وهلا أنشدته قول الحارثى:

وقفت على الدّيار فكلمتنى ... فما ملكت مدامعها القلوص

يريد صاحبها.

فقال له ذو الرّمة: يا أبا عمرو، أنت مفرد فى علمك، وأنا فى علمى وشعرى ذو أشباه.ص233

[16] - تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي، دراسة نصية في تحولات البنية والمضمون، ثناء أنس الوجود،مكتبة الشباب، 1990، ص182بتصرف

[17] -المذاكرة في ألقاب الشعراء، النشابي الإربلي" أبو المجد أسعد بن إبراهيم الشيباني الإربلي"، موقع الوراق

تعديل من خلال WPS Office

الغافلة التي ارتدت ثوب البساطة والتلقائية في التعامل، فاستيقظت الذات الأبية لإ ثبات حقها، لقد أدرك الشاعر أن ما تعرض له في حواضر الدولة هي محاولات إقصائية متعمدة، فهو لم ينزل إليها إلا مضطرا لينال بعض المال الذي يعينه ، ثم يؤوب إلى موطنه ينشد ما يروقه ، معبرا عما يعتمل داخله، فلم يكن شعره سطحيا كما ظن بعض معاصريه، إذ ليس شعر ذي الرمة كما قيل "أبعار ظباء لها مشم في أول شمها ثم تعود إلى أرواح البعر"[18]، بل إن أفق التوقع يتسع أمامنا ليلقي ضوءا جديدا من التفسير على نصوص ذي الرمة، ذلك بعد قراءة الواقع الذي عاشه الشاعر من جهة، ولمعرفتنا بإلمام ذي الرمة بالكتابة من جهة أخرى[19] ، بحيث جعلت تلك المعرفة بالكتابة قصدية في اختيار الألفاظ فيما وصل إلينا من نصوص ذي الرمة :

وشعرٍ قدْ أرقتُ لهُ غريبٍ أجنّبهُ المُـساندَ والمحالا
فبـــــــــتُّ أقـــــيمهُ وأقـــــدُّ منهُ قـــوافيَ لا أعدُّ لها مثا لا
غَرَائِبَ قَدْ عُرِفْنَ بِكُلِّ أُفُقٍ مِنَ الآفَاقِ تُفْتَعَلُ افْتِعَالا -[20]

ربما دوّن ذو الرمة بعض نصوصه، فكان يقرأها فيمحو ويقر وينتقي ما يشاء، وفقا لما يستقر لديه من معنى ترتاح إليه نفسه. فشاعرنا لما لم يجد مكانا مرموقا بين الفحول، حاول التفرد بشعره ولم يحد عنه ليخرج إلى موضة الشعراء الذين وصلوا إلى أسماع السادة والشعب، فعبر عن كل ما عاشه من تجارب مرت به بحلوها ومرها عن طريق توظيف بيئته الأصلية، من هنا نجده فضل الابتعاد والتأمل في م لامح الصحراء التي تشبه ملامحه النفسية حيث البعد والغموض؛ فعكس غناها ب الحياة في كل تفاصيلها كما كانت نفسه غنية بالمعاني والشعر الجزل، إلا أن غلظتها وخشونتها عادلت كلماته وصوره الصعبة وتجربته المريرة، فكأن حياته معاناة الصحراء، كما كان الحال عند الشاعر الجاهلي، إلا أن الحال يختلف بين العصرين؛ ف الجاهلي لم يكن له بد من شظف العيش ولا مفر من خشونة الصحراء التي لفحت ألفاظه بحرارتها وعادلت غلظتها غلظة ألفاظ شعرائها في العصر الجاهلي، بينما اختلف الحال عند ذي الرمة الذي حاول الخروج إلى حلو الحياة ورغدها، فقوبل ب الصد والحرمان، فكانت حياته محاكاة للصحراء في عزلتها وبعدها، صحيح أنه أحب الصحراء وارتبط بها لنشأته فيها ، إلا أن الإقصاء عمّق ذلك الارتباط بها "فأنسن حيوانها"واستلهم كل مظاهرها ووظفها كما شاء، فكأن عشقه للصحراء جعله يلجأ إليها في فرحه، ويهرول إليها في حزنه وغضبه ، فهو يتمثلها في كل مشاعره ؛ فجعلها رمزا يحتوي مشاعره ويعبر عنها، إذ وجد فيها وفي ما حوله تعويضا نفسيا وتميزا وتفردا، فها هو يصبح الفتى الأول في الصحراء من حيث قوة احتمال السفر فيها فيقول متحدثا عن نفسه :

[18] - خزانة الأدب، عبد القادر البغدادي، ج1ص39، موقع الوراق.

[19] - ورد علمه بالقراءة وأنه كان يسمع شعره مكتوبا ويراجع ما جاء فيه في ما ذكره المرزباني :"حدثنى أبو عبد الله الحكيمى، قال: حدثنى يموت بن المزرّع، قال: حدثنا عيسى بن إسماعيل، قال: حدثنا الأصمعى، قال: قال عيسى بن عمر: كنت فى يوم من أيامى أقرأ على ذى الرمة شيئا من شعره، فقال لى: أصلح هذا الحرف. فقلت:وإنك لتكتب؟ قال: نعم، قدم علينا حضرى لكم فعلمنا الخطّ فى الرمل." الموشح،ص231

[20] - ديوان ذي الرمة ، شرح التبريزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م ص519

تعديل من خلال WPS Office

تخدي بمنخرق السربال منصلتٍ ... مثل الحُسام إذا أصحابه شحبوا[21]

فإذا لم يصنف ضمن فحول الشعراء ، فهوفي بيئته رجل الصحراء الأول الذي لا يبارى، لا يمسه وهن السفر ومشقته كما يحدث لأصحابه في الرحلة، لأنه من أكثر الناس اعتيادا للسفر ومشقته؛ فهو أخو مشقة ملازم لها.

أخا شُقةٍ زَوْلًا كأن قميصه على نصل هندي جُرَازُ المضَارِب [22]

أو هو في رحلته :

بأشعث منقدّ القميص كأنه صَفيحةٌ سيفٍ جفنه مُتَخَرّقُ1[23]

فإذا كانت الرحلة تلحق الضرر بملابسه وتبدو على مظهره، لكنه دائما ما يستدرك مؤكدا على علو همته وأن عزيمته لا تفتر فيمضي مواصلا رحلته ولا يبالي ، مما يوجه التلقي إلى الربط بين تلك الرحلة في الصحراء وقسوتها، ورحلته إلى الكوفة والبصرة حيث يذهب الشاعر ليعرض إبداعه أمام الجمهور وأمام فحول الشعراء في الأسواق الأدبية- المربد والكناسة- فيواجه بقسوة الهجوم والإزاحة، فيبدو ذو الرمة وقد ربط بين أثر الرحلتين عليه؛ فهو لم ينل من الرحلة سوى تمزق ملابسه أو ما يبدو على الهيئة الخارجية، أي أنها مجرد مشقة ظاهرية لم تنل من نفسه شيئا، فنفسيته عالية لم تتأثر بتلك الرحلة الصعبة فيسير مكملا طريقه قويا صلبا ك الحسام .

ويعمد ذو الرمة إلى إظهار قسوة الطبيعة المحيطة، ويتفنن في إبراز ذلك ليوصل إلى المتلقي مدى صلابته وقوته وعدم انهزامه أو انكساره في مواجهة تلك القسوة. ويؤكد أنه مهما بلغت شدة الصحراء وشراستها لكنه عرضة تلك الصعاب :

وتيهاء تودي بين أرجائها الصّبا عليها من الظلماء جُلٌ وخَنْدق

عَلَلْتُ المَهَارَى بـــينها كـــُل ليلـــةٍ وبين الدّجا حتى تراها ت ـــــــمَزّقُ

فأصبحتُ أجتابُ الفَلاة كأنني حسامٌ جَلَتْ عنه المَدَاوِسُ مِخْفَق[24]

لا يضل شاعرنا بأرض هي بطبعها يتاه فيها لاتساعها وشدة إظلامها، فلقد اقتحمها بناقته غير مبال بمخاطرها، فقطعها كالسيف السريع القطع لمضيه وقوته. تلك الصورة التي دأب ذو الرمة على تكرارها ، ليذهب كيد نفسه، ويطفيء لعج صدره. فكأنه كلما شعر بالإبعاد والتنحية عن المكانة التي كان يطمح إليها و ووُجه بالصد و التثبيط والهدم، راح يؤكد صموده وقوته ، وقدرته على مواجهة أشد المصاعب؛ لذا كان كثير الترديد والتأكيد على تصوير وعورة الصحراء وما أصابه من وعثاء السفر فيها والتأكيد على أن ذلك لم يفت في عضده أو يكسره:

وه__اج__رةٍ ش____ه____ب__اءَ ذاتِ ك_ري_ه___ةٍ يكاد الحصى من حمْيها يَتصدّعُ

نصبت لها وجهي وأطلالَ بعد ما أَزَى ال_ظِّ_ل والكْ_تنَ الل_ّ_ياحُ

21 - ديوان ذي الرمة ص25

22 - الديوان ص73 ، الزّول: الرجل الظريف، جراز المضارب: أي قطوع

23 - الديوان ص167

24 - الديوان ص174-175، المِدْوَسُ : خَشبة يشد عليها مِسَنٌ ، يدوس بها الصّيْقلُ السيفَ حتى يَجلوَه

تعديل من خلال WPS Office

المُوَلّـعُ
إذا هـ َاج ِ َ ز َح ْس ُ ّ ذو ع َث َ ان ِـين وال ـتق ـت س
َبِ ّ ار ِيـت ُ أش ْـباه ٍ بهـا الآل ُ ي َّ مص َع ُ
ع َس َف ْت ُ ا ِ ع ْتس َ اف َ الص ّدع ِ كل ّ م َهيبة
ٍ ت ـظل بها الآجـال عني ت َ ّص َو ّع[25]

إن ذا الرمة يختلف اختلافا واضحا عمن سبقوه، فالصحراء عنده غاية ووسيلة أيضا، وطغيان الحديث عنها وعن أهوالها ومظاهرها، أراده ذو الرمة وعمد إليه، لا ليرسم لوحاته الفاتنة لصحرائه[26]فقط، بل كان وراء ذلك توجيه أعمق .
هاهي الصحراء المقفرة شديدة الحرارة التي ينتقي لها وصفا يليق بما يناله منها فهي" ذات كريهة"، حيث الحصى المتوقد، إلا أنه يتقدم جسورا بناقته" أطلال"، غير عابئ بخشونة الصحراءوبأسها، ولتعميق البعد الدلالي - بما يحمله من معاني الشدة والغلظة - لدى المتلقي، نجده يصف الجو المحيط به، و الذي سار فيه قاطعا تلك الصحراء، حيث كان وقتا قد ثار فيه الغباروهاج، وبينما تضطرب فيه قطعان البقر يمينا وشمالا طلبا لمكان تأوي إليه، يشق هو وناقته تلك الصحراء المهيبة بمُضيٍّ وجلد. إن ذا الرمة يؤكد مرارا على هذا المعنى ويوظف الألفاظ توظيفا يحاكي تلك التجربة المريرة التي عاشها في ظل التهميش الذي واجهه، فكانت تلك الصور التي يستخدمها تستدعي أحيانا شعر الصعاليك[27] الذين عانوا من الإقصاء في مجتمعهم، فهربوا إلى الكهوف في الصحراء واصفين معاناتهم فيها مع إبراز قوتهم وقدرتهم على التحمل مع فخرهم بذواتهم، فمع اختلاف السلوك الاجتماعي بينهم وبين ذي الرمة إلا أن شعورا بالقهر سببه الإقصاء المتعمد قد جمع بينهم،

[25] - الديوان ص257، أطلال : اسم ناقة، أزى الظل: تقلص، اكتن: اكتنس، اللياح: النور الأبيض،المولع: فيه ألوان مختلفة أي موشى، نحس: غبرة،ذو عثانين: أوائل من الغبار،يمصع: يلوح ويتحرك،سباريت : السبروت من الأرض القفر، اعتسف الطريق: سار فيه على غير هدى، مهيبة، موضع يهاب، الآجال: جمع "إجل" وهي قطيع البقر، تصوع :تفرق يمينا وشمالا

[26] - اقتصرت وجهة نظر الدكتور شوقي ضيف على البعد الوصفي المجرد في وصف الصحراء ومظاهرها لدى ذي الرمة ، الأمر الذي لا يجعله يختلف كثيرا عمن سواه من الشعراء السابقين، حتى وإن تفرد عنهم كما يقول الدكتور شوقي بوصفها من الداخل، انظر كتاب التطور والتجديد في الشعر الأموي، شوقي ضيف، دار المعارف، ص250-251، ط12

[27] - في الأبيات تتقارب المعاني كثيرا من قول الشنفرى في لاميته المشهورة بلامية العرب:
ويـــــوم مـــــن الـشّــعْــرَى يَــــذوبُ لُـــوَابُـــهُ أفـاعِـيـهِ فــــــــــي رَمـــــضـــــائِـــهِ تَـــتَـــمَـــلْـــمَـــلُ
نَـصَـبْـتُ لـــه وَجْــهِــي ولا كِـــنَّ دُونَـــهُ ولا سِـــتْـــرَ إلاَّ الأتْـــحَـــمِـــيُّ الْـــمُـــرَعْـــبَـــلُ
وخَــرْق كـظَـهْـرِ الـتُّـرْسِ قَـفْـرٍ قَـطَـعْـتُـهُ بِــعَــامِــلَــتَــيْــنِ ظَــهْــرُهُ لَـــيْـــسَ يُـــعْـــمَـــلُ تَـــــرودُ الأرَاوِي الـصُّـحْـمُ حَــوْلِــي كـأنَّـهـا عَـــــــذَارَى عَـــلَـــيْـــهِـــنَّ الْـــمُـــلاءُ الْـــمُـــذَيَّـــلُ
يخرج الشاعر إلى الصحراء مواجها قسوتها فيظهر مدى قوته وقدرته على مواجهة المشاق، التي لا تحتملها حيوانات الصحراء، ليثبت أمام نفسه أولا وأمام المتلقين أنه غير آبه بما في الصحراء من صعوبات.راجع مجموع أشعار الصعاليك في العصر الجاهلي،دققه محمد فوزي حمزة، مكتبة الآداب،ط1، 2009م، ص31

تعديل من خلال WPS Office

فمثلت الصحراء لهم مهربا ماديا ومعنويا ، كما قدمت لهم دعما نفسيا على المستوى اللاشعوري؛ إذ كانت القالب الذي صبوا فيه المعاني التي تغلبوا من خلالها على الا نكسارات التي لحقت بهم جراء الإبعاد.

لقد انطلق الشاعر وحده مع ناقته في تحد، أراد من خلاله إثبات قوته وصموده، كما كان تحرُّكه على غير هدى"عسفت اعتساف الصدع" في تلك الأرض المهلكة أو" الكريهه"، التي استطاع التغلب عليها والسمو على مصاعبها، كان معادلا أو لنقل أحد طرق الترميم الذي وظفه ليبلغ به وطرا في نفسه؛ إذ تجاوز بذلك أزمة الذات المقهورة وسط وحشة البيئة التي كان يطمح أن يحصل على مكانة فيها، من هنا نجده يصفها بأنها " تيهاء، أو كريهة"، فهو إنما يسير في الصحراء مخترقا أهوالها بعزم ومضي ليتجاوز مشاقها ؛ ليؤكد سيطرته عليها. ويعمل ذو الرمة دائما لتوثيق وتأكيد "دوره البطولي المفعم بالحيوية الدافقة والقوة والجرأة أمام المجهول باختراق المغلق والانطلاق إلى العالم المفتوح لتحقيق توازنه النفسي"[28]. "

وكثيرا ما تلفُّ تلك الصحراء بالسراب، فيغطي أرضها و جبالها ويظل ذلك السراب يلمع محيطا بكل موجوداتها، فينقل لنا في تلك الصورة وبتوظيف ذلك الرمز الرائع تلك الحياة التي فاجأته، إذ ذهب إليها يحدوه الأمل بأن يصل إلى مكانة بين أهلها، لكن الأمل في تلك الصحراء - التي وظفها هنا معادلا لحياة المدينة- تحوّل سرابا أحاط بأمانيه الكبيرة التي صورها بالجبال العالية وقد غطاها السراب فابتلعها.

دوِّيّـــــةٍ ودُجـــا لـــيــلٍ كأنّـــهـــما يَمٌّ تَرَاطَـــنَ في حَافـــــاتِهِ الرُّومُ

يُجلى بها اللّيلُ عنّا في مُلمّعة مِثل الأديم لَهَا مِنْ هَبْوَة نيمُ

كأننا والقِـــنانَ الـــقـــودَ يـــحمـــلنا موجُ الـفـراتِ إذا الـــتجّ الدّياميمُ

والآلُ منفهقٌ عنْ كلِّ طامسة قـــرواءَ طائـقـــهُا بالآل مـحـــزومُ[29]

كان ذو الرمة يتطلع نحو الانتقال إلى حياة أفضل في حواضر الدولة كالكوفة و البصرة، ففوجئ بأن انتقاله لم يكن إلا انتقالا من ظلمة إلى سراب، فانتقل من "دجا ليل" يحيط به ويملأ أذنيه باللغط والاضطراب، إلى أرض لامعة براقة إلا أنه كان لمعانا خادعا، وهنا تكشف قراءة النص عن بعد تطلعي لدى المبدع، فقد كانت لديه رؤية تطلعية لتحقيق أحلام وآمال داعبته، فطمح إلى الانتقال نحو مكان جذاب حيث بريق المال والشهرة، إلا أنه يُصدم بواقع مغاير؛ فلم يكن ذلك البريق واللمعان سوى لمعان السراب، لقد حمل معه أمانيه الكبيرة التي كانت تملأ نفسه -وكأنها

---

[28] - انظر مقال الرؤية في شعر ذي الرمة، آن تحسين الجلبي، مجلة جذور ج17، مج8،ص357 النادي الأدبي الثقافي بجدة، يونيو 2004.

[29] - الديوان ص144،دوية: مفازة تسمع فيها دويّا، تراطن: كلام العجم ومن ليس من العرب، ملمعة: أرض تلمع بالسراب، هبوة : غبرة، النيم: الفرو الصغير،القنان: الصغار من الجبال،القود : الطوال المستطيلة جعلها قودا لأن أعناقها ممتدة، التج: أي صار لجة من كثافة السراب واللجة هي الماء الكثير، الدياميم: الفلوات.منفهق: متسع، الطامسة: هضبة أو قنة طمِست أي غابت "في السراب"، قرواء: طويلة الظهر، الطائق: جزء ناشز يبرز من الجبل ويعني ارتفع السراب حتى بلغ الطائق، محزوم: أي متحزم.

تعديل من خلال WPS Office

الجبال - " كأننا والقنان القود"، يسبقه الأمل نحو الأفضل فإذا به قد انتقل إلى أرض قد غطاها السراب الكثيف"يحملنا موج الفرات"، بل ارتفع السراب ليحيط بكل جزء من تلك الجبال فتبدو وقد حزمها السراب حتى ما نشز عنها "طائـقـــ ها بالآل مـحــزومُ" فلا يسمح لأي جزء منها بالظهور، وليس من قبيل الصدفة أن يصور الشاعر ذلك السراب الهائل بأمواج الفرات الغاضبة التي غطته وما معه من أمنيات ، لقد كان الفرات جزءا من تلك التجربة لا شك؛ فعلى ضفتيه الكوفة و البصرة اللتان مثلتا الأرض التي حمل إليها الأماني و الأحلام فابتعلها السراب المهول " موج الفرات" فلم يصل إليهما، فقد "حال بينهما الموج ."

عاش ذو الرمة فاقدا الحلم بسبب ذلك الإبعاد وتحولت الأحلام والطموحات إلى وهم، من هنا تتردد كثيرا في شعره صورة السراب الذي يغطي الصحراء وخاصة جبالها.مع التأكيد على قسوة الصحراء باختيار المفردات المختلفة ذات الدلالات المتقاربة التي تكشف بجلاء عن مشاعره إزاء محاولات إحباطه.

فنسمعه تارة أخرى يقول:

ومَـــهْــــمهٍ دوّيّـــــةٍ مـــرثك ـــــال تقسّمَتْ أعْلامُها في الآلِ
كأنما اعتمّت ذُرَى الأجْبال بالـقــزّ والأبـــرَيـــسَم الهَلْهَال[30]

ويلح على فكرة السراب:

بتيهاء مِقْفار يـــــكاد ارْتك ـــــــــاضها بآل الضحى والهجر بالطرفِ يَمْصَحُ
كأن الفِرنْد المَحْضَ معصوبة به ذُرى قــــُوره ـــــا ين ـقـــــدُ ع ــــــنها ويَـنـصـحُ[31]

هذا الإلحاح المتكرر على تلك الظاهرة يؤكد عمق قصدية الدلالة في نفس ذي الرمة ، فلم تكن ألفاظه مجرد تكرار للألفاظ التي كان يستخدمها الجاهليون في وصف الرحلة والناقة والصحراء ومظاهرها، فقد تخطت الاستخدام الأولي البسيط بوصفها مجرد أسماء لموصوفاتها الأولى، فلم تكن الألفاظ عند ذي الرمة أنماطا مستهلكة ، فقد وظفها بشكل جيد بما لاءم تجربته.[32]

لعل وعي ذي الرمة أن ما عاشه من أماني قدغطاها السراب وحجبهاهو ما جعله قويا لم ينكسر أمام الإحباطات التي مُني بها، بل تخطاها ليرمم ذاته.

ترميم الذات بين المدح والهجاء، والفخر :

"قالوا: ذو الرمة أحسن الناس تشبيها، وإنما وضعه عندهم أنه كان لا يجيد المدح و لا الهجاء"[33].

امتلك ذو الرمة القدرة الفنية العالية بشهادة معاصريه، لكن تستوقفنا بعض الملا حظات التي نسجلها بغية الوقوف على فهم مختلف وتناول جديد لغرضي المدح و

---

30 - الديوان ص104

31 - الديوان ص419، القور : الجبال الصغيرة، الفرند: شقق الحرير الأبيض،

32 - راجع الفكرة التي نختلف معها على إطلاقها والمطروحة في كتاب: التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، صلاح مصيلحي عبد الله، دار المعرفة الجامعية، 1988م، ص139

33 - الشعر والشعراء،أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ،دار الحديث، القاهرة،1423 هـ ج1، ص 525.

تعديل من خلال WPS Office

الهجاء عند ذي الرمة.
مدح شاعرنا عبد الملك بن مروان وولده هشام، وامتدح بعض الولاة والقادة طمعا في العطايا والجوائز، والمكان والمكانة في قصورهم، وإذا كان قد أحسن وأجاد في مدح النساء" الغزل"، فلم تأخر في مدح الرجال؟ ولم حسده جرير على بائيته الأشهر" ما بال عينيك منها الماء ينسكب"؟
لقد قدمنا موقف ذي الرمة بعدما أنشد قصيدة "ما بال عينيك" أمام عبد الملك، إذ شعر ذو الرمة بنوع من الصد بدا مشوبا بعدم الاستساغة لطريقته في حضرة الخلفاء، وكأنما أحس منذ اللحظات الأولى من اللقاء أن قصر الخلافة ليس التربة المناسبة التي تنمي بذور التقدم نحو تبوئه المكانة التي يرجوها، نضيف إلى ذلك ما ذكرناه من شعوره بالغربة في تلك البيئة وهشاشة العلاقات في ذلك الوسط الذي لم يعتده مما دعاه إلى الابتعاد، هذا الابتعاد السريع وعدم القدرة على الصبر على تحمل قسوة البيئة وممالأة البيئة الشعرية في قصر الخلافة أطمع المنافسين في إقصائه بعدما سمعوه وأعجبوا بشعره وتشبيهاته.
لقد كان ينزل كثيرا إلى الكوفة والبصرة بحثا عن المكانة التي تكسبه شهرة كما كان يبحث في قصور الولاة عن المال الذي يعيش به، وقد كان يجد صدى، لكن اعتزاز شاعرنا بذاته التي حاول الكثيرون تحطيمها، هذه الذات التي لم تكن تطيق المدح، جعله لم يطل ولم يكثر في هذا المجال، بل نقله إلى ما يرضي ذاته ويضمد جراحها ويجبر كسرها خاصة في قصائده الموجهه للخليفة ، فلنقف عند جزء من قصيدة مدح بها الخليفة عبد الملك بن مروان:

13- إليك وليَّ الحق أعْمَلْـتُ أرْكـُبًا   أتوكَ بأنـضاء قـلـيـل خُـفـُـوضُهـا

....

22- فنعمَ أبو الأضيافِ ينـتجعـونـهُ   وَمَوْضِعُ أنـقـاضٍ أنِيّ نُهُوضُهَـا
23-جميلُ المُحيّا همُهُ طلبُ الـعُلا   معيـدٌ لإمرارِ الأمـورِ نـقـوضُهـا
24-كسَاكَ الذِي يَكسُو المَكارِم حُلَة   مِنَ المَجْدِ لا تـبْلى بَطِيئاً نُـفُوضُهَا
25-حبتكَ بأعلاقِ المكارمِ والـعُلا   خِصَالُ المَعَالـي قضُهَا وَقَضِيضُهَا
26-سـيأتـيكمُ مِنّي ثـناءٌ ومـدحـة   مُحَبّرَة صَعـبٌ غَـريضٌ قـَريضُهَا
27- سيبـقى لكم ألا تـزالَ قصيدة   إذا اسْحَنْفَرَتْ أخْرَى قَضِيبٌ أرُوضُهَا
28- رياضة مخـلوجٍ وكلُ قصيدة   وإن صعـبتْ سهـلٌ عليّ عـروضُها
29-وقافية مثل السِّنانِ نطـقـتُها   تبـيدُ المَهَارَى وَهْـيَ بـاقٍ مَضِيضُهَا
30-وتزدادُ في عينِ الحبيبِ ملاحة   وَيـزْدَادُ تـبْغِـيضاً إلـيْهَا بَغِيْضُهَا[34]

[34] - انظر القصيدة في الديوان ص249-253 ، الأنضاء: المهازيل من الإبل ، خفوضها: استراحتها.أنقاض: جمع "نِقض" وهو رجيع السفر المهزول من الإبل، أعلاق: هو الكريم النفيس من كل شيء، قضيضها جماعتها،

تعديل من خلال WPS Office

تلفت هذه القصيدة انتباه المتلقي وتؤكد وعيًا وإرادة في التخفيف عن النفس بعدما أصابها من انكسار، فبعد إطلاعنا على الموقف الذي حدث بينه وبين الخليفة عبد الملك، وكيف قام ذو الرمة بمراجعة ما قال، والعدول عما أغضب الخليفة حتى نال رضاه وجائزته، لكنّ ذا الرمة بقي واعيا بأزمته، غير مقتنع باعتراض الخليفة وما وجهه إليه من نقد غاضب جائر من وجهة نظره، لذا قام ذو الرمة في هذه القصيدة -عن طريق ثلاث وسائل- بالثأر لنفسه، أولا: البداية في هذه القصيدة بفكرة البكاء أي نزول الماء من العين لسبب قد يبدو غير مبرر، وكأنه مصر على المعنى ذاته، وإن لم يأت بشكل مباشر فهو يبدأ القصيدة بمخاطبة شخص "بكيتَ" وهو يعني نفسه، تماما كما كان يعني في القصيدة الأولى:

بَكَيْتَ! وَمَا يُبْكِيكَ مِنْ رَسْمِ مَنْزِلٍ كسَحْقِ سَبَا بَاقِي السُحُومِ رَحيضُهَا[35]

فهو يتساءل وكأنه مندهش من سبب البكاء، أعلى تلك الأطلال الدارسة التي خلقت ملامحها" سحق سبا" والتي تذكرنا ب " كلى مفرية". إنه يدور في نفس الفلك حيث البداية ببكاء الطلل، فإنه وإن كان أمرا معتادا لدى العرب البداية ببكاء ا لأطلال، إلا أن ذا الرمة تعرض قبل ذلك لغضب عبد الملك عندما بدأ متسائلا عن سبب بكاء الصاحب المتخيل الذي عنى به نفسه؛ فكان الأحرى به أن يتجنب ذكر البكاء وليبدأ بذكر دار المحبوبة، أو إلقاء التحية عليها كما فعل في العديد من قصائده.

ثم تتوالى الأبيات التي تطرب نفس شاعرنا بالحديث عنها وهي دار مية وحزنه لفراقها ، ثم يفيق ذو الرمة في البيت الثالث عشر ليتذكر أن القصيدة في مدح الخليفة "ولي الحق"، لكن أي حق ذاك الذي يقصده ذو الرمة، أهو الحق بالخلافة كما كان ينبغي التأكيد دوما على هذه الفكرة عند خلفاء بني أمية، الذين جعلوا الخ لافة ملكا عضوضا وحقا شرعيا لهم، أم أن ذا الرمة يعني بأنه صاحب الحق بهذه القصيدة وعليه أن يتفرغ لهذا الغرض؟؟ ويبدو أن ذا الرمة الذي جاء على أنضاء الإ بل كان يذكر نفسه أن هذه القصيدة لمدح الخليفة وينبهها من غفلتها وانسياقها وراء حب مي وذكر الناقة والصحراء، إلا أن نفسه بدت تعصاه ولا تستطيع أن تسير طيعة نشيطة في مدح الخليفة، إذ يفاجئنا بانقطاع التسلسل المنطقي بمدح الخليفة، إذ يفلت حبل المديح ويحكم الإمساك بحبل الحديث عن الناقة صاحبة الفضل التي أوصلته للخليفة بعدما أصابها التعب والإجهاد والهزال ، وكأن كل من يستحق التكريم لا هو ولا حتى الخليفة بل تلك التي حملته وتجشمت المصاعب وا لأهوال في الصحراء، وكأنه اعتراف الابن بفضل أمه برا بها وشفقة عليها، فيبدو الحاجز النفسي العالي الذي بناه الإهمال والتغافل والسخرية وقد وقف حائلا بينه وبين القدرة على الاسترسال في مدح عبد الملك، إذ لا يعاود مدحه مرة أخرى إلا بعد تسعة أبيات استغرقته الناقة بوصف ما ألمّ بها جراء تلك الرحلة ، من المؤكد أن وصف الناقة وما أصابها من وعثاء السفر هو أحد أعراف الحديث إلى الممدوح

غريض: طري ويعني ليس قريضها صعبا ضيقا،اسحنفرت: إذا مضت وتتابعت،قضيب: التي لم تذلل من النوق ،المخلوج: البعير،أروضها أقومها وأنقحها،مضيضها: حرقتها

[35]- كسحق: كخَلق، سبا: برود، السحوم: السواد، رحيضها: غسلها

تعديل من خلال WPS Office

ليكشف كيف تجشم من أجله المصاعب؛ فيجزل الممدوح العطاء[36]، إلا أن ذا الرمة أسهب كثيرا للدرجة التي تؤدي إلى انفراط عقد المدح ،الذي هو المقصد والذي كان يفترض أن يكون هو واسطة العقد في تلك القصيدة.

ففي البيت الثاني والعشرين يعود مرة أخرى إلى الهدف وهو مدح الخليفة، وهنا تأتي الوسيلة الثانية التي من خلالها يشتفي لنفسه ويضمد جراحها ويرممها، وليقل من يحلو له وصفه بأنه لا يحسن المدح ما يريد، فالتعدد في قراءة النص وتلقيه تعلن رأيا آخر وتضع وجهة نظر مغايرة، فقد شكل المدح في هذه القصيدة وسيلة دفاعية وإعلاء للذات وإنصافا لها، فالقصيدة التي بلغت ثلاثين بيتا لم نجد فيها سوى خمسة أبيات للمدح فقط، وباستعراض ذلك المدح نجد ما يدخل شيئا من الريبة في بعض صفات المدح التي خلعها على الخليفة، فهو وإن كان موضع الكرم والمعروف، طلق الوجه، صاحب أخلاق عالية وخصال رفيعة، إلا أن هناك وصفين لا ينبغي أن نتركهما هَمَلا ، إذ يسترعيان الانتباه:

فهو أولا يصفه بأنه" معيد لإمرار الأمور نقوضها"، مما يعني قدرته على إنفاذ ونقض ما يريد وسيطرته على الأمور يسيرها كما يشاء، لكنها تحمل معنى أنه قد يُمْضي الأ مور أو يبرم العقود ثم ينقضها وقتما شاء فكأنما لا عهد له ولا شعور بالأمان المطلق ، ولعل ذا الرمة ينقل شعورا دفينا بما يحسه نحو الخليفة.

أما الوجه الثاني المريب في المدح كان في تمنيه له مجدا لا ينفد، "حلة من المجد لا تبلى"، إلا أن بقية البيت بدت استدراكا في قوله " بطيئا ثفوضها" فنفوض الحلة أو الثوب" معناه ذهاب صبغه فإذا كانت الحلة لن تبلى ، فذهاب اللون دليل على انحطاط القيمة، فأي مجد ذلك الذي يتمناه شاعرنا للخليفة؟!

ثم تستوقفنا الأبيات الأخيرة في القصيدة باعتبارها الوسيلة الثالة لترميم الذات ولعلها أوضح تلك الوسائل ، إذ يتبع أبيات المدح، بأبيات الفخر بشعره المتفرد وقدرته على النظم الذي يأتي على لسانه سلسا ذلولا لا يخضع إلا له، فكل قصيدة مهما صعبت على غيره من الشعراء، فهو لها مذلل مروض تألفه ويألفها كما هو الحال بينه وبين الإبل التي أشبعها وصفا، فكأن قصائده تلك التي تبدو صعبة "قضيب"- والقضيب هي التي لم تذلل من الإبل- على الشعراء فإنما هي ميسورة خاضعة له يروضها باقتدار " رياضة المخلوج"، فقصائده كإبله جزء لصيق به وهو يؤكد ذلك المعنى باختياره للألفاظ المشتقة من عالم الإبل ليصنع ملائمة بين العالمين الأدبي والمادي ليظهر غير منازع فيهما.

وإذا كانت القصائد التي تنشد لمدح الخليفة تذهب ولا يبقى منها شيء فستبقى قصائد ذي الرمة قوية نافذة كالسنان، تصد المخزيات ويبقى أثرها وحرارتها. ويختم القصيدة ببيت يرد كيد الكائدين وحقد الحاقدين ، ويكشف الوعي الذي ترسخ لدى ذي الرمة من أن هناك من يبغضه ويحسده، وبالتالي ستكون قصائده

[36] - يعرض الدكتور يوسف خليف فكرة تتقارب مع الفكرة المطروحة إلا أنها لم تمتد لتصل إلى نفس المفهوم ، فإذا كان الدكتور يوسف خليف يرى أن ذا الرمة يسترسل في حديث الحب والصحراء استرسالا ينسيه ما عداه، وكأنه في حلم لذيذ لا يريد أن يفيق منه ،... حتى إذا ما استوفى هذا الحديث تذكر صاحبه الذي يقصد إليه.ولم يتطرق دكتور خليف إلى أي دافع نفسي وراء ذلك .انظر كتاب " ذو الرمة شاعر الحب و الصحراء، يوسف خليف، مكتبة غريب،1990،ص186-187

تعديل من خلال WPS Office

قبيحة بل تزداد قبحا في عينيه مهما حاول الإبداع، وأنه سيكون واضحا للعيان من المحب الذي سيرى ويقدر جمال شعره ، ومن المبغض الذي سيزيده بغضه تشويها لقصائد ذي الرمة .

وإذا كان ذو الرمة قد اصطدم منذ البداية بعبد الملك بن مروان إلا أنه حاول أن يدخل عليه مرات أخرى ليمدحه لكسب بعض المال، إلا أن الأمر بدا وكأنه قد تبنى موقفا تجاه البيت الأموي حيث التعامل بحذر، ومن ثمّ عدم القدرة على الإخلاص في المدح أو الاستغراق فيه، ففي الديوان نجد قصيدة يذكر المحقق أنها في مدح هشام بن عبد الملك لا نجد فيها ذكرا له سوى مرة واحدة

إلى ابن أبي العاص هشامٍ تعسفت بنا العيس من حيث التَقى الغَافُ و الرّمْلُ

بلادا بـــها أهـــلـــون لـــيســـوا بـــأهـــلـــنـــا وأخرى مـــــن الـــبلـــدان لـــيس لـــهـــا أهـــلُ[37]

فكل ما تحمله القصيدة مما يخص هشاما هو أنه توجه بناقته على غير هدى إلى هشام فقطع بلادا بعيدة حيث لا أهل له، وقطع بلادا أخرى مقفرة لا أناس بها ، ليصور فقط للممدوح ما تكبده من مشاق حتى يصل إليه. لكننا لا نجد مدحا له. [38]

وتستوقفنا قصيدة أخرى توجه بها لمدح أحد أبناء البيت الأموي وهو عبد العزيز بن مروان ولي عهد الخليفة عبد الملك وأخيه يقول فيها:

وقائـــلـــةٍ مـــا بـــال غـــيلان لـــم يـــُنِخ إلى منتهى الحاجات، لم تدر ما شغلي

ولو قمتُ مُذ قام ابن ليلى لقد هوت ركـــابـــي بـــأفـــواه السّـــمـــــــــاوة والـــرّجـــــــل

ولكن عَـــــــدَاني أن أكـــــونَ أتـــَيـــْتـــُهُ عَـــقـــَابـــــــيـــــــلُ أوصَـــــابٍ يُـــشَبّهْنَ بالخَبْلِ

رأتني كـــــــلابُ الحيّ حتى عرفـنني ومُـــدّتْ نـــــسُوجُ العـــــنكبوت على رَحلي[39]

يعيش ذو الرمة صراعا بين الناحية المادية والناحية المعنوية صوره في الأبيات، حيث جرد من نفسه شخصا يتساءل" ربما تكون زوجه على عادة الشعراء" لماذا لم يتوجه ذو الرمة إلى من يقضي حوائج الناس ويكرمهم بعطاياه؟ ثم يردف قائلا : لم تدر ما شغلي؟ فتلك المرأة التي توجهت له بسؤال يحمل اللوم في طياته لا تدري ما يتنازعه، و هو نزاع نفسي يتقاسمه بين حساسيته المفرطة بذاته، وإرادة الحصول على المال، ثم يقدم ذو الرمة ما أقعده عن الوصول إلى عبد العزيز بن

---

[37] - الديوان ص544، الغاف : شجر عظام يكون بعمّان.

[38] - يرجح الدكتور يوسف خليف أن المنية عاجلت الشاعر قبل الانتهاء من هذه القصيدة، وأن الرواة احتفظوا بها كما وصلت إليهم، لكننا تختلف مع هذه الرؤية ، إذ يتسق هذا الاختصار في المدح مع المنهج الذي أرتينا أنه انتهجه في مدحه خاصة للبيت الأموي.انظر ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، يوسف خليف، مكتبة غريب،1990، ص190

[39] - الديوان ص61-62 السماوة الطريق بين الكوفة إلى الشام، عداني: صرفني، عقابيل: بقايا مرض، الخبل شبه الجنون، والخبل أيضا الفالج

تعديل من خلال WPS Office

مروان ، على الرغم من أنه ركب متجها إليه، ألا وهو ما أصابه من مرض، ويصدر الشاعر عن وعي عميق ذي دلالة تكشف عن تفضيل البعد عن الممدوح، فما انتابه ما هو إلا بقايا مرض " عقابيل أوصاب" كان قد انتابه فلم يشف منه تماما بل عاوده، والمرض الذي أصابه يبدو أنه مرض نفسي حال دون وصوله إلى الأمير، إنه "الخبل"، والذي يرتبط معناه معجميا إما بالجنون أو الفالج، وكأنه يوجه رسالة لتلك القائلة التي هي جزء مجرد من ذاته، ليقول مبررا تأخره عن الذهاب إلى عبد العزيز، لقد أصبت بالجنون أو ما يشبهه ولن أذهب لامتداح الأمير، وإذا عالجنا الكلمة على أساس معناها المعجمي الثاني و هو الفالج أو الشلل الذي ألزمه مكانه مدة طويلة، فهو غالبا شلل نفسي عاقه عن المضي في الطريق نحو الممدوح. مما يكشف ذاتا تنازعه حتى لا يذهب للمدح ويبقى في عالمه.

ولعل الأبيات التي تسبق الحديث عن المدح مباشرة كانت أبياتا يفخر فيها بذاته وكأنها كانت مقدمة وتمهيدا وإرضاء لذاته وجبرا لكسرها، قبل محاولة المدح التي لم يستطع المضي فيها قدما حيث كبلته الأمراض.

فنسمعه يقول:

أعاذِلَ غُضي من لسانك عن عذلي فما كل من يهوى رشادي على شَك‍ـــلي

فما لام ي‍ـــوما من أخ وه‍ـــو ص‍ـــادقٌ إخائي ولا اعت‍ـل‍ـّتْ ع‍ـــلى ض‍ـــيف‍ـــها إبْ‍ـل‍ـي

إذا كان ف‍ـيه‍ـــا الرّسْ‍ـــلُ لم ت‍ـأت دونه فِصالي، ول‍ــــو ك‍ـــانت عِجَافا، ولا أهلي

وإن تعتذر بالمَحْل من ذي ضُرُوعها على الضيف يَجرَحْ في عَراقيبها ن‍ــــَصْلي[40]

الأبيات تقدم خلاصة توصل إليه الشاعر بعد كل ما لحقه من محاولات الإحباط ، فليس كل من يبدو على أنه يقدم له النصيحة يحب له الخير حقا، فهو يومئ إلى محاولات تحويل مساره الفني المتفرد إلى نوع خاص مختلف من الشعر لا يرضيه ولا يرتاح إليه، تحولت من نصائح إلى إقصاء ، وهنا يقرر أن لكل إنسان طريقته في الحياة ووجهة نظر يسير وفقا لها، ولا يمكن أن يصدر لوم أو تأنيب من صديق حقيقي إن اختلفا في تناول الحياة.

وتقف مدائح ذي الرمة لبلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قاضي البصرة مختلفة عن مدحه بشكل عام، فإذا كان قد مدح خلفاء وعددا من الولاة والقضاة وو لاة الأمر في عصره كهلال بن أحوز المازني التميمي بعد نيله من آل المهلب، وكان مدحه له مدحا جيدا أشاد فيه ببطولته وشجاعته، كما مدح خالد القسري أمير مكة وغيرهما، إلا أن مدائحه لبلال كانت من أروع ما كتب إذ نمّت عن مكانة خاصة له، ويبرز ذلك من خلال الكم والكيف في تلك القصائد، حيث كانت قصائد المدح لبلال هي أغلب قصائد المدح عند ذي الرمة ، بالإضافة إلى أننا نجدها أطول قصائد المدح التي يردد فيها اسم بلال أكثر من مرة مشيدا بأخلاقه وبكرم أصله :

[40] - الديوان 61، الشكل: المِثل، الرسل:اللبن، فصالي: الفصال أولاد الإبل، نصلي: سيفي

تعديل من خلال WPS Office

وكمْ لبلالٍ من أبٍ كان طيّباً على كلّ حالٍ في الحياة وفي القبــر
لَكمْ قدَمٌ لا يُنْكِرُ النّــاسُ أنّهَا معَ الحسبِ العاديّ طمّتْ على الفخر

وعلى الرغم من كون بلال في البداية قد سخر من طريقة ذي الرمة في المدح وظن أنه لا يجيده، إلا أنه يبدو قد أعجب بما سمع منه بعد ذلك ، فقربه إليه وأنصفه ، ورد عنه بعض من أشهر في وجهه سيف الغيرة، فقد أورد المرزباني في موشحه هذا الخبر: "قال رؤبة لبلال بن أبي بردة علام تعطي ذا الرمة؟! فوالله إنه ليعمد إلى مقط ّعاتنا فيصلها فيمدحك بها، فقال: والله لو لم أعطه إلا على تأليفه لأعطيته، وأمر له بعشرة آلاف درهم ."[41]، لعل هذا الموقف قد ربت على مشاعره ، وساعده على تخطي جزء من أزمته، فنجد ذا الرمة يسهب في مدح ابن أبي بردة ، وتبدو في مدحه حاجة في نفسه ، وكأنه وجد في شخص بلال ونسبه ما ساعده على التنفيس عن ذاته التي حاول المنافسون هزمها، فإذا كان إبعاده عن الشهرة وإحراز المكانة المرموقة يرجع إلى إزاحته عن قصر الخلافة الذي لم يجد فيه على الأقل من وجهة نظره- إنصافا من أهله له؛ فقدحقق له قاضي البصرة وحفيد أبي موسى الأشعري ما ساعده على الجمع بين الحسنيين حيث نيل الجوائز والعطايا من جهة ، كما أنه يصلح كجهة قصف للبيت الأموي الذي حورب من أجله وذاق مرارة التهميش، فأبو موسى الأشعري كان هو المحكم في صف على بن أبي طالب أمام معاوية بن أبي سفيان وفي ذلك يقول:

وحُــقّ لمنْ أبو مــوسى أبــــوهُ يُـــوَفّقهُ الذي نــــصَبَ الجـــــبَالا
حواريُ النــــبيّ ومـــنْ أنــــاسٍ هُمُ مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِىءِ النّعَالا
هُوَ الحَكمُ الذي رَضِيَتْ قُرَيْشٌ لِسَمْكِ الـــدّين حــــــينَ رَأوهُ مَــــالا

فهو يشير أن قريشا قد مالوا إلى أبي موسى وحكمه لما أحسوا أنه هو من يأمنونه لرفعة الدين، ومن ثمّ يكون الميل في الحقيقة لعلي وليس لمعاوية، مع ما تحمله الإ شارة من عدم أحقية الأمويين بالخلافة.

أطال ذو الرمة وأكثر من مدح بلال في حين تقلص وتراجع كثيرا في مدح آل البيت الأموي ، فقد كانت أبيات المدح لبلال يصل إلى ما يزيد على أربعين بيتا في القصيدة، في حين تراجعت أبيات المدح في خلفاء بني أمية فلم تتجاوز عشرة الأ بيات في القصيدة، ولعله في مدخله لمدح بلال في القصيدة السابقة ما يبرر به ذلك:

ولم أمدح لأرضيه بشعري لئيما أن يكون أصاب مالا
ولكن الكرام لـــــهم ثنـــائي فــلا أخـــزى إذا ما قيل قالا

ذو الرمة يبرر عدم قدرته على المدح ، وعدم القدرة على الانطلاق دائما في هذا

[41] - الموشح، ص40

تعديل من خلال WPS Office

المضمار، فما يمسك لسانه ويكبل خطواته نحو المدح هو أنه ينتقي من يستحق مديحه، فكأن القلة التي تقترب من الانعدام في مدح أهل البيت الأموي رغم ما لديهم من مال، فلم يكونوا أهلا للمدح من وجهة نظر ذي الرمة.

الهجاء والفخر:

وكما وظف ذو الرمة مدحه ليعيد إلى نفسه اعتبارها ويرمم كسرها، فلقد وجه هجاءه أيضا لمحو آثار الإحباطات المتتالية، وقد كان هجاؤه في الأغلب لهشام المرئي" حدثنا أبو الغراف قال: مر ذو الرمة بمنزل لامرىء القيس بن زيد مناة يقال له: مرأة به نخل فلم ينزلوه ولم يقروه"[42] وقد كان يبني هجاءه على التعيير بما خالف قيم العرب كالبخل والجبن والتخاذل أمام الأعداء والتشهير بالمخازي، وكل ذلك كما يبدو كان مدخلا يمدح به ذاته التي لم يجد من ينزلها المنزلة التي تمنى الوصول إليها.

ففي فخره بذاته نسمعه يحلق ليسمو إلى أعلى ذرى المكارم والبطولة والفروسية :

أعـبدَ بني امرئ القــيس بن لؤم   ألمْ تسألْ قضاعة   َ أو نزارا
فَــتخــ   ْبَرَ أنّ عيصَ بَني عَــــديّ   تقرّعُ نَبْتُهُ
الحَسَبَ النُـضَارَا
وَأنّ بَنِي امْرِىءِ القيْسِ ابْنِ لؤمٍ   أبـــــــ َتْ عَيْدَانُهَا الا انكِسَارَا
وَ أنِي ّ حــيـــنَ تزْخَـــرُ لــ   ِي رِبَابِي   عــــماعمَ أمنعُ الثّـــقلينِ جارا
أناسٌ أهــلك ــــوا الرؤســـاءَ قتلا   وَقادُوا النّاسَ طوْعًا وَاعْتِسَارَا
أناسٌ إنْ نظرتَ رأيــتَ فــــيهمْ   وراءَ حـــمايَ أطـــوادًا كــــبارا
ومنْ زيدٍ عـــلوتُ عليكَ ظهراً   جَسِيمَ المَجْدِ وَالعَدَدَ الكُـــــثارَا[43]

يعير بني امرئ القيس بأنهم لئام الأصل حتى يبدأ بالفخر بمجد آبائه وفروسيتهم، وكيف تسنى لهم قيادة الناس ويتباهى بكثرة عددهم ، ويذكرنا ذو الرمة بالفخر الجاهلي ، مثل ما كان يردده فرسان وسادة القبائل في الجاهلية .ونسمع فخرا يعيد للأذهان فخر عمرو بن كلثوم :

أنا ابنُ الذينَ استنزلوا شيخَ وائلٍ   وعــــمرو بنَ هندٍ والـــقــنا يتـكسّرُ
سَمَوْنَا لهُ حَتّى صَــــبَحْنَا رِجَـالهُ   صدورَ القنا فوقَ العناجيجِ تخطِرُ
فَهَلْ شَاعِرٌ أوْ فَاخِرٌ غَيْرُ شَاعِرٍ   بِقوْمٍ كــقَــومِي أيـــُهَا النّاسُ يَـــــفْخَرُ
عَلا َ مِنْ يُصَلّي مِنْ مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا   بِطمٍّ كأهـــوال الدجــا حـــين يــــزخر
همُ المنصبُ العاديُ مجداً وعزّةً   وهمْ منْ حصى الدّهنا ويبرينَ أكثرُ[44]

يفاخر الشاعر بقومه وأيامهم منذ الجاهلية وحتى الإسلام ، والقارئ للقصيدة يجد فيها حشدا لأيام قبيلته في الجاهلية يعدد مآثرهم ويزهو بأبطالهم، ويفخر بقوتهم وكثرة عددهم" وهمْ منْ حصى الدّهنا ويبرينَ أكثرُ" ، ويستدعي هذا الشطر فخر عمرو بن كلثوم " ملأنا البر حتى ضاق عنا"

[42] - الأغاني ج18- ص22

[43] - الديوان ص473،عيص: كل شجر له شوك

[44] - الديوان ص225، شيخ وائل هو بسطام بن قيس الذي قتله بنو ضبة، العناجيج: الطوال الأعناق من الخيل، طم: عالي، العادي: القديم

تعديل من خلال WPS Office

فرُبّ أمـــيـــرٍ يُـطــرقُ القـــومُ عندهُ   كما يُطرقُ الخربانُ من ذي المخالبِ
تخطّيتُ باسمي دونهُ ودسيعـــتي   مَصَارِيعَ أبــــــــــْوَابٍ غِــــــلا َظِ المــَتاكِبِ
ومُستنجدٍ فرّجتُ عنْ حيثُ تلـتقي   تـــَرَاقــِيهِ إِحْدَى المُفـْــظِعَـــــات الكوَارِبِ
وَرُبّ امْرِىء ذِي نَخْوَة قَدْ رَمَيْتـُهُ   بِفاطــــمــةٍ تــُوهِي عِــظـــام الحــــــواجِب
وَكسْبٍ يَسُوءُ الحَاسِدِينَ احْتَوَيْتـُهُ   إلى أصل مـــــالٍ من كــــــرامِ المكاسبِ[45]

يرسم ذو الرمة صورة لأحد كبار الساسة وهو صاحب سطوة ومهابة، وكأنه أحد الجوارح القوية وقد أحاطت به ضعاف الطيور وقد أطرقت في حضرته خوفا، بينما يتقدم متخطيا كل الحدود والحواجز التي تفصل الأمير عن بقية الناس لما يتمتع به دونهم من مكانة لدى الأمير بسبب كريم فعاله، في صورة تستجلب إلى الأذهان ظاهرة المنصفات التي كان يقولها الشاعر الفارس الجاهلي مثلما كان يفعل عنترة بن شداد، حيث يقدم الشاعر العدو بصورة الشجاع القوي، حتى إذا ما ذكر انتصاره عليه بدا الشاعر وقد تغلب على خصم قوي، فكان تقديم الأمير ذا مهابة تخشع أمامه الحشود بمثابة منصفات العصر الجاهلي حتى يفخر بمكانته التي ليست لأحد، ومن محمود فعاله أنه صاحب نجدة لمن يستغيث به حتى يدفع عنه الموت ، ويصور نفسه فارسا لا يقبل الذل؛ فإن آنس كبرا من أحد فهو يعاجله بضربة تقصمه، وأخيرا يفخر بشعره الذي يتكسب منه مالا يغيظ به منافسيه من الشعراء الذين حسدوه، فلعل تلك الأبيات قدمت شفاء لنفسه ، آسى به نفسه الجريحة وجمع فيها كل ما تمناه من مكانة لدى علية القوم، وفروسية وشجاعة، وفحولة شعرية جلبت له الكثير من المال.

لقد تمثل شاعرنا في فخره فرسان العرب وساداتهم، فكأنه تمثل عنترة وعمرو بن كلثوم في فخرهما بالذات، والفخر بقبيلته، وعلى الرغم من كونه بعيدا في تركيبته الاجتماعية بعيدا عن الاثنين، إذ نعرف أنه لم يكن فارسا أو سيدا في قومه، إلا أنه صنع بذلك معادلا نفسيا، فقد نجد أن هناك تقاربا شعوريا بينه وبين عنترة في شعور كليهما بالإحباط؛ حيث راح كل منهما يعالجه بطريقته، فربما كان إحساس عنترة بفروسيته وإشادة القوم به عند الحرب هو ما جعله قويا لا ينكسر، فكان يبرز ذلك في شعره تعزية وترميما لذاته التي نبذت وهمشت في حالة السلم.

وفي تمثله لعمرو بن كلثوم سيد قومه وفارسهم في فخره محاولة من ذي الرمة محضة لترميم ذاته لمدها بكل مظاهر العزة التي حرم منها منذ نشأته يتيما فقيرا، وصولا إلى الإحباط الذي ناله عندما نزل إلى ساحة الاقتتال الشعري أمام فحول الشعراء، فراغ إلى عالمه الخاص يبدع شعرا يؤازر ذاته ويرفع عنها بشتى الطرق

[45] - الديوان ص74، الخربان: مفردها خرب وهو ذكر الحباري ويقال فلان خَرَب أي جبان ، وذو المخالب: البازي، الدسيعة: كل فعل محمود، مناكب الأبواب: نواحيها، حيث تلتقي تراقيه: موضع القتل، ذي نخوة: ذي كبر، فاطمة: من فطم أي قطع.احتويته: أي حزته إلى أصل مال كان عندي.

تعديل من خلال WPS Office

ما أصابها من الانكسار، فحشد في إبداعاته كل المعاني التي أراد أن يُوصلها لغيره، أو رسم المكانة التي تمنى أن يصل إليها "فليسعد النطق إن لم تسعد الحال".

ويبقى ذو الرمة معتدا بذاته يراها تختلف عن غيرها ويرى لها مكانة سامقة، فكما أنزلها في شعره منزلة عالية فأعلاها وبوأها مرتبة السادة والفرسان، فقد ظل هذا الشعور ملازما له حتى آخر رمق في حياته، إذ تذكر الروايات: "لما احتضر ذو الرمة قال: إني لست ممن يدفن في الغموض والوهاد، قالوا: فكيف نصنع بك ونحن في رمال الدهناء قال فأين أنتم من كثبان حزوى - قال وهما رملتان مشرفتان على ما حولهما من الرمال - قالوا فكيف نحفر لك في الرمل وهو هائل، قال فأين الشجر و المدر والأعواد ؟! قال فصلينا عليه في بطن الماء، ثم حملنا له الشجر والمدر على الكباش وهي أقوى على الصعود في الرمل من الإبل، فجعلوا قبره هناك وزبروه بذلك الشجر والمدر ودلوه في قبره. فأنت إذا عرفت موضع قبره، رأيته قبل أن تدخل الدهناء وأنت بالدو على مسيرة ثلاث" [46]. إن علو الأنا والمبالغة في الحرص على ظهورها، ورفضه أن يكون فردا ضمن القطيع ، كان السبب الرئيس وراء اختلا ف ذي الرمة .

الخلاصة:

من الطبيعي أن تمر أي نفس بشرية بظروف قاسية كتلك التي مر بها ذو الرمة من محاولة الإقصاء، فكلما كانت الذات التي تتعرض لتلك الظروف القاسية على قدر من الوعي الكافي، استطاعت تجاوز الأزمة، وقد امتلك ذو الرمة أدوات المقاومة

[46] - الأغاني ج18،ص51

تعديل من خلال WPS Office

التي ساعدته في ترميم ذاته التي منيت بمحاولات الإحباط والتهميش، مما جعله يستعيد التوازن النفسي بتقديم نماذج إبداعية تكشف من خلال القراءة المتأنية عمق الدلالات التي قدمها ليرأب صدع نفسه، كما تكشف كيف استطاع من خلال وعيه الثقافي من إعادة إنتاج لغة الشعر الجاهلي " فقد استخدم معجم اللغة التقليدية ولجأ إلى استخدام الصور التقليدية إلا أنه جاوزها إلى تشكيل تجربة نفسية مختلفة.... فقدم تجربة فنية تحمل تميزها الخاص ."[47] بعدما كساه وعيا حضاريا تخطى به أزمة ذاته التي تعرضت للانكسار، فقام بذكاء وعمق وفطنة على ترميم تلك التصدعات التي لحقت بتلك الذات .

صحيح أن ذا الرمة لم يكن الوحيد من الشعراء الذين وصفوا قسوة الصحراء وشدتها وخلع عليها العديد من المسميات " كالمفازة ، والمهمه والتيهاء.." إلا أنه تميز بتقص دقيق لملامحها، و بتوظيفها بكل ما فيها ليرمز به إلى ما اعتمل في نفسه، وما مر به من قسوة حياة تشبه كثيرا بل ربما تفوق في نفسه قسوة الصحراء.

كما كشفنا الطريقة التي اعتمدها في مدحه وهجائه ليعلي من شأن تلك الذات ، لقد تميز ذو الرمة في إبداعه لا لرسمه لوحات فريدة للصحراء تقصى معالمها باللون والصوت والحركة فقط، بل لمقدرته على شحن تلك اللوحات قدرا كبيرا من الرموز التي عبرت عن تجربته الأليمة في صحراء مجتمع الحضر لا مجتمع البادية. وهو وإن بدا لمعاصريه غير موفق في المدح أو الهجاء فقد تناولنا نصوصه في الغرضين لنصل إلى أن هدفه فيهما ذو أيديولوجية اتخذت منحى مغايرا للمنحى المعروف لهذين الغرضين.

مصادر البحث ومراجعه:

أولا الدواوين :

1- ديوان ذي الرمة ، شرح التبريزي، كتب مقدمته وهوامشه عبد المجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996م

2- مجموع أشعار الصعاليك في العصر الجاهلي، دققه محمد فوزي حمزة، مكتبة الآداب،ط1، 2009م.

ثانيًا قائمة المراجع:" مرتبة وفقا لاسم المؤلف"

1- ابن منظور،مختصر تاريخ دمشق، ج2،نسخة إلكترونية www.alwarraq.com

2- أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى "المرزباني" ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، نسخة إلكترونية، موقع المكتبة الشاملة.

[47] -أحلام الخيال الفني ..مستويات الدلالة في شعر ذي الرمة، حسنة عبد السميع،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص48

تعديل من خلال WPS Office

3- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق : سمير جابر، الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة الثانية،ج18.
4- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، ،دار الحديث، القاهرة،1423 ه، ج1.
5- أبو المجد أسعد بن إبراهيم الشيباني الإربلي" النشابي الإربلي"، المذاكرة في ألقاب الشعراء، النسخة الإلكترونية، موقع الوراق.
6- ثناء أنس الوجود، تجليات الطبيعة والحيوان في الشعر الأموي، دراسة نصية في تحولات البنية والمضمون، ،مكتبة الشباب، 1990.
7- حسنة عبد السميع، أحلام الخيال الفني ..مستويات الدلالة في شعر ذي الرمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998.
8- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف1، ط12.
9- صلاح مصيلحي عبد الله، التقليد والتجديد في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار المعرفة الجامعية، 1988م.
10- عبد القادر البغدادي ،خزانة الأدب، ج1، النسخة الإلكترونية موقع الوراق.
11- يوسف خليف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، مكتبة غريب،1990.

ثالثًا: الكتب المترجمة:

1- جيروم ستولنيتز، ت فؤاد زكريا ،النقد الفني، دراسة جمالية وفلسفية، ، مطبعة جامعة عين شمس، 1974.

رابعا : الدوريات :

1- آن تحسين الجلبي، الرؤية في شعر ذي الرمة، مجلة جذور ج17، مج8، النادي ا لأدبي الثقافي بجدة، يونيو 2004.

تعديل من خلال WPS Office